Selçuk Üniversitesi/Seljuk University
Edebiyat Fakültesi Dergisi/Journal of Faculty of Letters
Yıl/ Year: 2014, Sayı/Number: 32, Sayfa/Page: 127-142

مقدمة ابن المقفع ل (كليلة و دمنة): مستويات القارئ

Dr. Walat Mohamad
Selçuk Üni. Edb. Fak. Arap Dili ve Edb. Bölümü
Walathasan@hotmail.com

ملخص

تتناول هذه الدراسة مستويات المتلقي كما جاءت في مقدمة ابن المقفع لكتاب (كليلة ودمنة) لأنها . بخلاف معظم مقدمات كتب التراث . تركز على القارئ وليس على مضمون الكتاب أو مؤلفه. ويضع ابن المقفع قراء كليلة ودمنة في مستويات عدة: الباحث عن التسلية في صور الحيوانات، والمكتفي بالمعاني الظاهرة، والباحث عن المعاني العميقة ... إلخ. وبناء على ذلك يتصور الاحتمالات التي يمكن أن تصادف قارئ هذه القصص، ويقترح حلوله بشأنها دون أن يقدم تفسيراً لرموز كليلة ودمنة. وتقدم الدراسة تحليلها لأسباب امتناع ابن المقفع عن تفسير تلك الرموز والإشارات، وترك أمرها للقارئ رغم حرصه الشديد على أن يفهم القارئ المقاصد العميقة لتلك القصص. وتربط الدراسة كل ذلك بآراء الباحثين العرب الذين يرجحون (أو يؤكدون) أن ابن المقفع هو من كتب قصص كليلة ودمنة أو كتب بعضها على أقل تقدير. وهي . بذلك . دراسة تفرضها المقدمة ذاتها لما تتضمنه من اهتمام ابن المقفع بالقارئ: كيف عليه أن يقرأ قصص كليلة ودمنة وما يتوجب عليه فعله.

İBN MUKAFFA'NIN (KELİLE VE DİMNE) MUKADDİMESİ: OKUYUCU DÜZEYLERİ

Öz

Bu çalışma, İbn Mukaffâ'nın (Kelime ve Dimne) adlı eserinin mukaddimesindeki okuyucu seviyelerini incelemektedir. Bu eserin mukaddimesi, önceki mukaddimelerin aksine, kitabın içeriği ya da müellifine değil, okuyucunun seviyesine yoğunlaşır. İbn Mukaffâ, Kelime ve Dimne okuyucularına farklı seviyeler sunmuştur: Hayvan resimleriyle eğlence arayanlar, yüzeysel anlamla yetinenler ve anlamda derinlik arayanlar vs. Böylece bu hikâyeler okuyucularına, gerçekleşmesi muhtemel şeyleri düşündürür ve eserdeki sembolleri açıklamaksızın onlara çözümler önerir. Bu çalışma, İbn Mukaffâ'nın bu sembol ve işaretleri açıklamamasının sebeplerini ve okuyucunun bu hikâyelerdeki derin manaları anlamak için şiddetli isteğine rağmen, bu işi neden okuyucuya bıraktığını analiz eder. Bu çalışma, İbn Mukaffâ'nın Kelile ve Dimne hikâyelerini ya da en azından onlardan bazılarını yazdığını iddia eden Arap araştırmacıların bu görüşlerini bir araya getirir. Bu makale İbn Mukaffâ'nın okuyucuya, Kelile ve Dimne hikâyelerini nasıl okuyacaklarını ve yapılması gerekenleri mukaddimede empoze ettiğini açıklayan bir çalışmadır.

Anahtar Kelimeler: İbn Mukaffa, Kelile ve Dimne, semboller.

IBN MUQAFFA'S MUQADDIMAH (PANCHATANTRA): READERS LEVEL

Abstract

This study researches the levels of the receiver as ibn Al-Muqaffa indicates in his introduction for the book (Panchatantra) because it (unlike most of introductions of heritage books) makes focus on the reader not on the content of the book or its author. Ibn Al- Muqaffa puts Panchatantra readers in several levels: researcher for entertainment in animal pictures, and who takes only the surface meanings, and the researcher for the deep meanings etc and therefore imagines the possibilities that could encounter of these stories reader, and propose solutions for them without providing an explanation of the symbols of (Panchatantra). The study provides its analysis of the reasons which push Ibn Al- Muqaffa to doesn't give interpretation of those symbols and signs, and left it to the reader, despite his strong interest in the reader to understand the deep purposes of those stories. The study is linking all of this to the views of Arab researchers who reckon (or affirm) that Ibn Al Muqaffa is who wrote the Panchatantra stories or some of them at least. It is - thus - a study imposed by the introduction itself because Ibn Al- Muqaffa in it gives a full attention to the reader: how must he read the stories of Panchatantra and what he must do.

Keywords: Ibn Muqaffa, Muqaddimah(Panchatantra), symbols

مدخل

تعد المقدمة إحدى البنيات النصية المحيطة بالنص المتن التي تشمل أيضاً: العنوان والعنوان الداخلي ولوحة الغلاف وكلمة الغلاف وكلمات التنويه والتصدير...إلخ. ولأن لهذه النصوص (العلامات) علاقة وطيدة بالنص المتن فإن دراستها ذات أهمية بالغة في معرفة دلالات النص من جهة، وفي دلالات العتبة ذاتها بوصفها بنية نصية مستقلة من جهة ثانية. ومع ذلك ظلت المقدمة مهملة في الدراسات النقدية التي تناولت المتون ولم تنظر إلى المقدمة إلا بوصفها زائدة نصية يمكن الاستغناء عنها وتجاوزها بسهولة، غير أن الدراسات النقدية الحديثة أثبتت أن مقدمة الكتاب بنية نصية لها دلالاتها المستقلة من جهة، وذات صلة وثيقة بالنص المتن ومدخلاً إلى قراءته قراءة صحيحة من جهة ثانية، وهذا ما دفع أحد النقاد إلى القول: " إن أفضل وسيلة لرد الاعتبار للمقدمة هي قراءتها والتحاور معها " (الحجمري ١٩٩٦: ٤١).

المقدمة من حيث مؤلفها قد تكون ذاتية (يكتبها المؤلف نفسه) وقد تكون غيرية (يكتبها غير صاحب الكتاب: ناقد أو صديق أو الناشر أو المترجم...). وتنبع أهميتها و ـ كذلك ـ خطورتها من كونها خطاباً سابقاً على المتن؛ فهي ـ بسبب موضعها ـ تضع القارئ أمام رؤية معينة حول الكتاب تؤثر في قراءته سلباً أو إيجاباً تبعاً للهدف المنشود من المقدمة التي قد تكون :

١ ـ تقريظية هدفها تجاري إشهاري.

٢ ـ أو نقدية تدخل في حوار مع الكتاب.

٣ ـ أو موازية للنص. وتكون مستقلة تماماً عنه (كيليطو، ١٩٨٣: ص٥-٦). فإذا كانت من النوعين الأول والثاني فإنها تخاطب متلقي الكتاب تحديداً بغية التأثير في تلقيه

له اقتناء أو قراءة، أما إذا كانت من النوع الثالث فإنها تخاطب القارئ عموماً بغية التعبير عن فكرة أو وجهة نظر علمية أو أدبية معينة، حسب المجال الذي ينتمي إليه الكتاب.

يبدو ـ من خلال المصنفات العربية القديمة ـ أن المصنفين العرب القدماء كانوا يولون أهمية بالغة لمقدمات كتبهم، حيث كانوا يتحدثون فيها عن منهجيتهم في التأليف وعن محتوى الكتاب، وقد نرى بعضهم يدخل في حوار مع كتاب سابق للكشف عن الجديد الذي يطرحه في كتابه وعن أسبقيته إلى موضوع من الموضوعات...إلخ. وهذا يدل على أن المصنفين العرب كانوا " واعين،أشد ما يكون الوعي، بأهمية المقدمة ووظائفها وأدوارها المتميزة وسلطتها الخطابية والإقناعية " (بلال ٢٠٠٠: ٣٩).

أياً كان الهدف من المقدمة (التوجيه أو التوضيح أو الإقناع ...) فإنها موجهة أولاً وأخيراً إلى القارئ (قارئ الكتاب تحديداً)، ولهذا يقوم كاتب المقدمة ـ بوصفه مرسل الرسالة ـ بتشكيل خطابه وفي ذهنه قارئ المقدمة ـ بوصفه متلقي الرسالة ـ وفقاً للغاية التي من أجلها كتب تلك المقدمة. و لأن القراء يختلفون في تلقيهم للكتاب تبعاً لمستوياتهم العلمية والعمرية ولأهدافهم من القراءة، فإن كاتب المقدمة قد يفصح عن ذلك إذا كان الكتاب ذاته موجهاً إلى شرائح مختلفة من القراء لأنه يحتمل في ذاته وطبيعته قراءات متنوعة، وهذا ما لمسناه بوضوح في مقدمة ابن المقفع لكتاب كليلة ودمنة، وهو ما دفعنا إلى هذه المقاربة بغية الكشف عن صور القارئ ومستوياته في تلك المقدمة.

مقدمات كليلة ودمنة

تتصدر كتاب كليلة ودمنة ثلاث مقدمات، وتسمى كل منها باباً: الأولى يكتبها علي بن الشاه الفارسي ويتحدث فيها عن سبب تأليف كليلة ودمنة، حيث يسرد الظروف السياسية والثقافية التي سبقت تأليف الكتاب وتلك التي رافقته، ثم الغاية من المؤلَّف

ذاته وأثره في تغيير الملك الهندي سياسته تجاه رعيته من التسلط والقمع إلى التسامح والتنمية. ويختتم الفارسي مقدمته بالإشارة إلى تكليف كسرى أنوشيروان الطبيبَ برزويه بجلب الكتاب من خزائن ملك الهند. أما المقدمة الثانية فتصف رحلة برزويه إلى الهند وحصوله على نسخة من الكتاب (إضافة إلى كتب أخرى) بمعاونة من أحد موظفي البلاط الملكي الهندي. جدير بالذكر أن ثمة سرداً لسيرة الطبيب برزويه منذ الطفولة حتى تكليفه بالحصول على كليلة ودمنة كان برزويه طلب إلى كسرى تثبيتها في مقدمة الكتاب مكافأة له على عمله، حتى تكون تخليداً لاسمه وإنجازه. وتأتي هذه المقدمة (وهي الثالثة) قبل الباب الأول من كليلة ودمنة مباشرة. أما ابن المقفع فيضع مقدمته بعد الأولى والثانية وقبل الثالثة.

مقدمة ابن المقفع

كل خطاب رسالة طرفاها المرسل والمتلقي، و إذا كان للمرسل (المؤلف) مقاصده في إنشاء رسالته فعلى المتلقي أن يتفاعل مع تلك المقاصد حتى تتحقق الغاية و (الفائدة) من إنشاء ذلك الخطاب، وهنا نكون أمام وظيفة الرسالة التي تعد الهدف الأساس الذي يدفع المؤلف إلى وضع رسالته بين يدي القارئ.

في مقدمته لكتاب كليلة ودمنة الذي قام بتعريبه عن الفارسية، يركز ابن المقفع على العناصر الثلاثة للخطاب: المرسل والمتلقي والرسالة، ويتوقف عند كل واحد منها بأسلوبه الخاص الذي سنتبين خصائصه فيما بعد. في هذه المقدمة ينتقل ابن المقفع من العام ـ بالتدرج ـ إلى الخاص؛ أما العام فيتمثل في وقوفه عند الغاية التي يريد المؤلف (العالِم بتعبير ابن المقفع) عموماً تحقيقها من خلال كتابه، حيث يقول: " ولم تزل العلماء من كل ملة يلتمسون أن يُعقَل عنهم، ويحتالون في ذلك بصنوف الحيل، ويبتغون إخراج

ما عندهم من العلل، حتى كان من تلك العلل وضع هذا الكتاب على أفواه البهائم والطير، فاجتمع لهم بذلك خلال... " (بيدبا ١٩٧٤: ٥٢).

في هذه البداية من المقدمة يحدد ابن المقفع العناصر التي سيتوقف عندها في الفقرات التالية من مقدمته، وقد حدد تلك العناصر بالعبارات التالية: " **العلماء** " ويقصد بهم المؤلفين أو الكتّاب، و " **يُعقل عنهم** " ويقصد بـ(يُعقل) المتلقين أو القراء أو الجمهور المعني بالخطاب عموماً ، و " **العلوم والحكم** " التي تشير إلى مضمون الرسالة. ولا ينسى ابن المقفع أن يشير إلى أسلوب الرسالة من خلال عبارة: " **وضع هذا الكتاب على أفواه البهائم والطير** "، وينبه القارئ على أن هذه الطريقة حيلة من المؤلف حيث يستخدم عبارة (**يحتالون بصنوف الحيل**)، لكي يجعل القارئ ينصرف عن المعنى الظاهر للقصص إلى معانيها ودلالاتها العميقة. وهو أمر سيأخذ قسطاً مهماً من عناية ابن المقفع في مقدمته كما سيتبين لاحقاً. وهذا ما جعلنا في هذه المقاربة نتوقف عند صور المتلقي ومستوياته تحديداً في هذه المقدمة.

القارئ ٠ المتلقي:

يبدي ابن المقفع في مقدمته وعياً عميقاً بمستويات قراء الرسالة؛ فليس المتلقون كلهم بمرتبة واحدة وليست غايتهم جميعاً من قراءة الكتاب واحدة، بل ثمة تفاوت في مستويات المتلقين تبعاً للمستوى الثقافي الذي يتمتع به كل قارئ، ولغايته من القراءة، والفئة العمرية التي ينتمي إليها. يقول ابن المقفع: " وأما الكِتاب فجَمَع حكمة ولهواً: فاختاره الحكماء لحكمته، والسفهاء للهوه، والمتعلم من الأحداث ناشط في حفظه ما صار إليه من أمر يُربَط في صدره ولا يدري ما هو، بل عرف أنه قد ظفر من ذلك بمكتوب مرقوم... " (بيدبا ١٩٧٤: ص٥٢).

إذن، قراء (كليلة ودمنة) عند ابن المقفع ثلاثة مستويات : الأول عالم حكيم عارف ببواطن الأمور، وهو الذي سيُعنى من (كليلة ودمنة) بالجانب الفلسفي والحكمي العميق من النص، أما الثاني فهو المتلقي البسيط الذي لا يدرك من الرسالة سوى الجانب المسلّي منها، كون القصص تجري على ألسنة الحيوانات وتتميز بالكثير من الإثارة والتشويق، أما الثالث فهو ذلك الناشئ الذي وجد الكتاب بين يديه دون أن يعرف قيمته الأدبية والأخلاقية.

إن إشارة ابن المقفع في مستهل المقبوس السابق إلى كون الكتاب (جمع حكمة ولهواً) لا تعني أنه مقسم إلى قسمين أحدهما للحكمة والآخر للتسلية، بل تعني أن القصص تنطوي على الأمرين معاً أو أحدهما، تبعاً لمستوى المتلقي/ القارئ، الذي قد يتفاعل مع هذا الجانب من القصص أو ذاك. ولهذا يسارع ابن المقفع إلى تبيان استراتيجية الكتاب حتى يتم تلقيه بطريقة صحيحة، فيقوم بتنبيه القارئ على الجانب الأهم في القصص الذي يمكن للقارئ أن يغفل عنه فيقول: " ينبغي لمن قرأ هذا الكتاب أن يعرف الوجوه التي وضعت له، وإلى أي غاية جرى مؤلفه فيه عندما نسبه إلى البهائم، وأضافه إلى غير مفصح، وغير ذلك من الأوضاع التي جعلها أمثالاً، فإن قارئه متى لم يفعل ذلك لم يدرِ ما أريد بتلك المعاني، ولا أي ثمرة يجتني منها، ولا أي نتيجة تحصل له من مقدمات ما تضمنه هذا الكتاب. وإنه وإن كانت غايته منه استتمام قراءته إلى آخره دون معرفة ما يقرأ منه لم يعد عليه شيء يرجع إليه نفعُه " (بيدبا ١٩٧٤: ٥٣).

في هذا المقطع يركز ابن المقفع على القارئ تحديداً ويركز منه على نقطتين: الأولى أن يتنبه على كون القصص تجري على ألسنة الحيوانات، وأن هذا الأسلوب ترميز من المؤلف إلى أشياء أخرى خفيّة ينبغي التفكير فيها والتأمل من أجل استنباط مراميها، وألا

يقف القارئ عند المستوى الظاهر من الشخصيات (الحيوانية) والأحداث التي قد لا تحقق سوى المتعة والتسلية، لأنها ليست الغاية القصوى من الكتاب. أما الأمر الثاني ـ وهو مرتبط بالأول ـ فهو إشارة ابن المقفع إلى أن القارئ لن يفيد شيئاً من هذه القصص ما لم يتعمق فيها، وما لم يفكر في ما وراء الظاهر من الخطاب. وبالتالي فهي دعوة من ابن المقفع إلى محاولة الوصول إلى أعماق النص استناداً إلى ظواهره، ومعرفة مغازيه انطلاقاً من رموزه وإشاراته. وبذلك يسعى ابن المقفع إلى وضع قارئه على السكة الصحيحة، ليقوم الأخير بقراءة صحيحة أيضاً؛ فالمقدمة تُعد " بوصلة موجهة، يهتدي بواسطتها ﴿ كذا ﴾ القارئ إلى القراءة الجيدة التي تجنبه كل شطط في التأويل والتقدير..." (أشهبون ٢٠٠٩: ٧٤). وهذا ما يريد ابن المقفع تحقيقه من مقدمته بالدرجة الأولى.

اللافت فيما سبق أن ابن المقفع لا يقدم للقارئ تفسير الرموز والإشارات في قصص كليلة ودمنة، بل يكتفي بتنبيهه على أن وراء إجراء القصص على ألسنة الحيوانات غايات ومرامي على القارئ أن يجهد لإدراكها. إنها دعوة للقارئ للمشاركة في إعادة إنتاج النص من خلال تفسير رموزه، وهو ما يمكن أن يختلف فيه القراء، وبالتالي تتعدد التأويلات ويبقى النص قابلاً لقراءات متعددة. وربما هذا ما جعل ابن المقفع يمتنع عن تقديم التفسير وفك الرموز للقارئ حتى لا يصاب بالكسل القرائي، وحتى لا ينغلق النص على دلالاته، فتبدو كل القراءات وكأنها قراءة واحدة لأنها ستنطلق ـ حينئذ ـ من تفسيرات ابن المقفع نفسه. وقد يعود سبب عزوف ابن المقفع عن تفسير تلك الرموز والإشارات إلى قيام علي الفارسي (في مقدمته) بشيء من هذا القبيل، حين تحدث عن السبب الذي دفع الحكيم بيدبا إلى تأليف هذا الكتاب وبهذا الأسلوب تلبيةً لطلب الملك الهندي أن يؤلف كتاباً يجمع فيه بين اللهو والحكمة ليخلّد به اسم الملك أسوة بسابقيه من

الملوك. ولهذا لم يشأ ابن المقفع إعادة ما قاله علي الفارسي من تفاصيل الكتاب وسبب تأليفه وإجرائه على ألسنة الحيوانات، بل انصرف إلى الوقوف عند القارئ المحتمل للكتاب حتى يضمن قراءة جيدة لقصصه، وهي مهمة تنهض بها عادة المقدمة الذاتية Auctorial، أي تلك التي يكتبها مؤلف الكتاب نفسه، حيث " تنهض المقدمة الأصلية الذاتية بوظيفة جوهرية تتمثل في ضمان قراءة جيدة للنص " (منصر ٢٠٠٧: ٦٩). ولأن مقدمة المؤلف (بيدبا) غائبة في كليلة ودمنة فقد أخذ ابن المقفع هذه المهمة على عاتقه حرصاً على تلقٍ جيد للقارئ العربي (القارئ الذي ترجم له ابن المقفع كليلة ودمنة وكتب مقدمته)، فالمقدمة ـ عموماً ـ تضع القراء أمام سؤال جوهري " يعد الموجه الأساسي لقراءاتهم للكتاب عامة : لماذا وكيف يمكنكم قراءة هذا الكتاب ؟ "(بلعابد ٢٠٠٨: ١١٨). وهذا هو السؤال الذي انطلق منه ابن المقفع في مقدمته التي يخصص القسم الأكبر منها لتنبيه القارئ على مثل هذا السؤال. ولكن (مرة ثانية) لماذا لم يفسر للقارئ تلك الرموز الإشارات ؟.

إضافة إلى ما سبق قد يكون ثمة سبب آخر منعَ ابن المقفع من التصريح بمعاني قصص كليلة ودمنة ورموزها، ودفَعَه إلى ذلك الحرصِ الشديد على ضرورة بحث القارئ عن تلك المعاني الخفية في تلك القصص. ذلك السبب (المحتمل) هو أن ابن المقفع كان مناوئاً لأبي جعفر المنصور وعلى وئام مع أبناء أعمامه، ولهذا هناك من يرى أن ذلك ربما كان سبب قتله، ويرى أنه من غير المستبعد " أن يكون من الأسباب التي قتلت هذا الكاتب كتبُه ورسائله كرسالة الصحابة وكليلة ودمنة وغيرهما، لما فيها من نقد صريح (...) ودعوة إلى الإصلاح والإعمار، فما " كليلة ودمنة " في الواقع إلا دعوة إصلاحية على ألسنة الحيوانات، ظاهرها الهزل وباطنها العظة والنقد الشنيع..." (ابن

المقفع ١٩٨٦: ١١). فإذا كانت هذه حال ابن المقفع مع السلطة آنذاك وإذا كانت (كليلة ودمنة) تشتمل على بعض آرائه وأفكاره الناقدة على ألسنة الحيوانات، فمن الطبيعي أن يدعو القارئ إلى إمعان النظر في ما وراء السطور، ومن الطبيعي كذلك ألا يفصح عن المعاني المتوارية خلف الرموز. وهكذا أيضاً يمكن أن نفهم سبب تقمص ابن المقفع شخصية المؤلف (وليس شخصية المترجم) في مقدمته.

يؤيد مثل هذه القراءة تلك الآراء التي ظهرت في السنوات الأخيرة، وترى أن ابن المقفع هو من ألف قصص كليلة ودمنة (أو بعضها على الأقل)، حيث يشير الدكتور حسين جمعة إلى " أن ابن المقفع أضاف إليها بعض الأبواب "(جمعة ٢٠٠٥: ٣٥). أما الباحث محمد رجب النجار فيذهب إلى أن من الخطايا التي ارتكبت بحق التراث العربي " تجاهل الصفوة قديماً، للموروث السردي العربي، منذ أن صودرت كليلة ودمنة سياسياً ورقابياً باعتبارها نصاً تحريضياً مغايراً للنص الثقافي السائد آنذاك (...)، والغريب أننا صدقنا أيضاً الزعم القائل بأنها نص مترجم "(النجار ٢٠٠٦: ٨) وهذا ما دفع النجار بعد سنتين من هذا التاريخ إلى تأليف كتاب بعنوان: كليلة ودمنة تأليفاً لا ترجمة. وإذا صح ذلك فإن مقدمة ابن المقفع هي مقدمة المؤلف وليس مقدمة المترجم. وهذا هو سبب مخاطبته مرات عدة القارئ المفترض لقصص كليلة ودمنة، دون الإفصاح له عن مقاصد النص كما يفعل المترجمون عادة في مقدماتهم.

هذا الحرص من ابن المقفع على ضرورة فهم المتلقي لخفايا النص يجعله يتوقف طويلاً عند الاحتمالات التي قد يفهم بها القارئ قصص (كليلة ودمنة) ومقاصدها. فيعمد ـ بعد كل ما سبق ـ إلى رصد الحالات المحتملة لقصور القارئ في قراءته أو في فهمه لما يقرأ. ولكي يضمن استيعاب القارئ لتنبيهاته يلجأ إلى الإتيان بقصص قصيرة

يجعلها أمثلة على مقوله وتوضيحاً له، ما من شأنه لفت انتباه القارئ إلى مقصده، متبعاً في ذلك أسلوب كليلة ودمنة في إيراد القصص لتقريب الفكرة إلى القارئ وضمان استيعابه لمراميه. ويمكن إجمال تلك الحالات أو الاحتمالات على النحو الآتي:

١ ـ الاحتمال الأول:

يقول ابن المقفع: " ومن استكثر من جمع العلوم وقراءة الكتب من غير إعمال **الروية** في ما يقرؤه كان خليقاً ألا يصيبه إلا ما أصاب الرجل الذي زعمت العلماء أنه اجتاز بعض المفاوز فظهر له موضع آثار كنز... "(بيدبا ١٩٧٤: ٥٣).

يورد ابن المقفع هذا الكلام ويسرد بعد ذلك قصة تبين حال من عثر على كنز ولكنه بجهله أضاعه ولم يُفد منه في شيء. وهو تنبيه للقارئ على أن ما بين يديه (كليلة ودمنة) كنز عليه أن يعرف كيف يفهمه وينتفع به بالتأني والتروي، حتى لا تكون حاله كحال صاحب الكنز. فالاحتمال الأول، إذن، **ألا يحسن القارئ استغلال جواهر المعاني المكنونة في قصص كليلة ودمنة** رغم وجودها بين يديه، إذا كان متسرعاً في قراءته غير متأنٍ.

٢ ـ الاحتمال الثاني:

يورد ابن المقفع قصة في نصف صفحة يقدم لها بهذين السطرين: " وكذلك من قرأ هذا الكِتاب، ولم يفهم ما فيه، ولم يعلم غرضه ظاهراً و**باطناً**، لم ينتفع بما بدا له من خطه ونقشه؛ كما لو أن رجلاً قُدم له جوز صحيح لم ينتفع به إلا أن يكسره؛ وكان أيضاً كالرجل الذي طلب علم الفصيح..." (بيدبا ١٩٧٤: ٥٤).

هذا الاحتمال ينطوي على احتمال **عدم فهم القارئ للمقروء**، لأنه لم يتعمق فيه ولم يعمل على محاكمته وإدراك أبعاده، ولم يعرف منه إلا القشور. ويأتي ابن المقفع بمثالين؛

الأول يعبر عن ذلك الذي حصل على " جوز صحيح "، ولكن لن ينتفع به إلا إذا كسره وحصل على مكنونه، أما الثاني فيتمثل في ذلك الذي طلب الفصاحة فمُنح صحيفة تتضمن فصيح الكلام وتصاريفه، ولكنه حفظ ما فيه دون تشرُّبه واستيعابه، فأخطأ بالتالي في استخدامه عندما لزم الأمر. في هذين المثالين يركز ابن المقفع على جانب التعمق في قراءة النص ومحاولة الوصول إلى جواهره ومكامنه وبالتالي مراميه؛ لأن القراءة دون ذلك ستقف عند تخوم النص ولن تكون ذات فائدة.

٣ ـ الاحتمال الثالث:

في هذه الحالة ينتقل ابن المقفع من لحظة القراءة إلى لحظة ما بعد القراءة، وهي اللحظة التي يقوم فيها القارئ بالانتقال من حالة التلقي والفهم إلى حالة الفعل والتطبيق، حيث لا يكفي أن يفهم المتلقي ويستوعب ما يقرأ إذا لم يتمثل ـ في واقعه العملي ـ الحِكم والمعاني التي نطق بها النص. ولتوضيح هذه الفكرة يورد ابن المقفع قصة قصيرة عن (الرجل الصابر على اللص) ويقدم لها على هذا النحو: " ثم إن العاقل إذا فهم الكتاب وبلغ نهاية علمه فيه، ينبغي له أن **يعمل بما علم** منه لينتفع به؛ ويجعله مثلاً له لا يحيد عنه. فإذا لم يفعل ذلك، كان مثله كالرجل الذي زعموا أن سارقاً... "(بيدبا ١٩٧٤: ٥٥). في هذه الحالة يدعو ابن المقفع القارئ إلى **العمل بما علم؛ فقراءته الكتاب واستيعاب ما فيه غير كافيين ما لم يعمل في حياته العملية بهذا العلم** وهذه المعرفة التي حصل عليها. والقصة التي يوردها ابن المقفع توضح أن صاحب المنزل كان يعلم بوجود السارق ولكنه لم يفعل شيئاً لدرء الخطر عن بيته حتى أتى السارق على محتوياته جميعاً. فلا يكفي العلم بالشيء ما لم يتم العمل بهذا العلم.

٤ ـ الاحتمال الرابع:

أن تكون غاية القارئ من كليلة ودمنة التسلية والمتعة والجمال. فبعد حديث عن العلم والعالم، وضرورة تمثله لعلمه قبل أن يقدمه للآخرين، وبعد استطراد (على مدى سبع صفحات ٥٧- ٦٤) لا علاقة له بالكتاب أو المؤلف أو القارئ يسرد فيه مجموعة من النصائح والمواعظ) يعود ابن المقفع إلى الحديث عن قارئ الكتاب تحديداً ويعود إلى المعاني الثلاثة الأولى وكأنه نسي أنه ذكرها، أو كأنه يود التأكيد عليها حيث يقول: " وقد ينبغي للناظر في كتابنا هذا ألا تكون غايته التصفح لتزاويقه، بل يشرف على ما يتضمن من الأمثال، حتى ينتهي منه؛ ويقف عند كل مثل وكلمة ويعمل فيها رويته"(بيدبا ١٩٧٤: ٦٤). فهو يدعو القارئ إلى تجاوز المستوى السطحي (المسلي) للقصص والبحث عما فيها من (أمثال). الملاحظ أنه جمع هنا اثنتين من الحالات السابقة وهما التعمق في المعاني وإعمال الروية. ثم يأتي ـ كعادته ـ بقصة توضح للقارئ مقصوده.

٥ ـ الاحتمال الخامس:

أن يصاب القارئ بالضجر والملل إذا لم يمعن النظر والتفكير في مضامين القصص،ويعبر ابن المقفع عن ذلك بقوله: " وكذلك يجب على قارئ هذا الكتاب أن يديم النظر فيه من غير ضجر، ويلتمس جواهر معانيه، ولا يظن أن نتيجتَه الإخبارُ عن حيلة بهيمتين أو محاورة سبع لثور : فينصرف بذلك عن الغرض المقصود. ويكون مثله مثل الصياد الذي كان في بعض الخلجان... "(بيدبا ١٩٧٤: ٦٥)، ثم يسرد حكاية (الصياد والصدفة).

ابن المقفع يعود لدعوة قارئه إلى أن " يديم النظر " و " يلتمس الجواهر " في المعاني والمقاصد كما فعل سابقاً، ولكنه يشير إلى أن القصص ظاهرها أحداث تجري بين حيوانات ولكنها ترمي إلى أبعد من ذلك، وكأن همه أن ينبه قارئه على هذه الناحية حتى لا يأخذ القصص بظواهرها لأن الغاية منها أعمق وأهم. يتبين من كلام ابن المقفع أن هذا المخفي خلف السطور أو ما لم يُقل في قصص كليلة ودمنة صراحةً هو ما دفعه إلى ترجمتها (أو تأليفها) وتقديمها للقارئ العربي وليس الظاهر منها الذي يتمثل في التسلية واللهو. وهو أمر يعود إليه مراراً من مقدمته.

في خاتمة المقدمة يذكر ابن المقفع أن الكتاب مقسم إلى أربعة أغراض، ويصنف هذه الأغراض ـ أيضاً ـ تبعاً لمستويات القراء وغاياتهم من قراءة الكتاب حيث يقول: " أحدها ما قصد فيه إلى وضعه على ألسنة البهائم غير الناطقة ليسارع إلى قراءته أهل الهزل من الشبان، فتستمال به قلوبهم (...). والثاني إظهار خيالات الحيوان بصنوف الأصباغ والألوان ليكون أنساً لقلوب الملوك، ويكون حرصهم عليه أشد للنزهة في تلك الصور. والثالث أن يكون على هذه الصفة، فيتخذه الملوك والسوقة، فيكثر بذلك انتساخه، ولا يبطل فيخلق على مرور الأيام، ولينتفع بذلك المصور والناسخ أبداً. والغرض الرابع، وهو الأقصى، وذلك مخصوص بالفيلسوف خاصة " (بيدبا ١٩٧٤: ٦٧).

ابن المقفع من خلال أغراض الكتاب الأربعة ـ يحدد مستويات القراء الذين يوجه إليهم هذا الكتاب، أو المتوقع تلقيهم له وهم: الشبان الذين يحبون قصص الحيوانات، والملوك الذين يأنسون بتلك القصص والصور المرافقة لها، والفلاسفة وأهل الحكمة الذي يُعنون بها في هذه القصص من معان عميقة ومن حكمة. بذلك يكون ابن المقفع قد بدأ مقدمته بالتوجه إلى قراء الكتاب وأنهاها أيضاً بذكر مستويات أولئك القراء المتوقع

إقبالهم على الكتاب الذي تم تأليفه أساساً من أجل المستويات القرائية المذكورة كافة. ولكن اللافت للانتباه في المقبوس السابق جعْل ابن المقفع البعد التجاري النفعي للكتاب أحد أغراض تأليفه على تلك الصورة؛ فالناسخ والمصور سينتفعان به إذا زاد الإقبال على شرائه، ولن يتحقق ذلك إلا إذا كان موجهاً إلى شرائح واسعة من المتلقين وبمستوياتهم المختلفة والمتفاوتة.

النتيجة

بناءً على كل ما سبق يمكن القول إن ابن المقفع أظهر ـ من خلال هذه المقدمة ـ وعياً عميقاً بمسألة التلقي في زمن كان التركيز في مقدمات الكتب ينصب على الكتاب أو على المؤلف أو عليهما معاً، ولم يكن التوقف عند القارئ يتم إلا بإشارات عابرة. وربما يعود ذلك إلى طبيعة (كليلة ودمنة) التي تتطلب قراءة خاصة تنبني على فك الرموز وقراءة ما بين السطور وما خلفها، وعدم الوقوف عند ظواهر الكلام والأحداث والشخصيات، ولهذا وجدنا ابن المقفع يشير في وقفاته المتعددة إلى ضرورة التعمق في القراءة لإدراك المقاصد الكامنة والخفية، لأنه يريد أن ينتقل بقارئه من مستوى القراءة إلى مستوى التلقي " فعملية التلقي تترك إمكان الابتكار أو التفسير مفتوحاً " (كاندو ٢٠٠٩: ١٦٢)، بعكس عملية القراءة التي تقف على ظواهر النص دون أن تغوص في أعماقه لتعيد إنتاجه من جديد. ولهذا ظل ابن المقفع يركز على مسألتي " الرويّة والتعمق " في القراءة لفهم المقاصد. وما القصص القصيرة التي يوردها في كل مرة إلا دعوة للقارئ لإعمال فكره ومخيلته بغية الوصول إلى أعماق النص وعدم التوقف عند ظواهره.

امتازت مقدمة ابن المقفع بالمنهجية الواضحة والمتماسكة حيث انطلق فيها من العام إلى الخاص مركزاً فيها على القارئ بالتحديد (وأحياناً المؤلف)، عدا موضع واحد تطرق فيه إلى مواعظ ونصائح لا علاقة لها بموضوع الكتاب أو بقارئه أو بمؤلفه، واستغرق ذلك سبع صفحات من تلك المقدمة، ثم عاد ليذكر القارئ بما قاله سابقاً حول ضرورة التعمق في القراءة وعدم النظر فقط إلى كون القصة على ألسنة الحيوانات. ولولا هذا الاستطراد لكانت المقدمة من المقدمات الرصينة والمتماسكة في الكتب القديمة. ولكنه في كل الأحوال يسجل لابن المقفع هذا الاهتمام بالقارئ وبمستويات القراءة والفهم والتأويل.

المراجع

- أشهبون، د. عبد المالك، ط١، (٢٠٠٩). عتبات الكتابة في الرواية العربية. اللاذقية، دار الحوار.
- بلال، عبد الرزاق (٢٠٠٠)، مدخل إلى عتبات النص ـ دراسة في مقدمات النقد العربي القديم. الجزائر، أفريقيا الشرق للنشر.
- بلعابد، عبد الحق ط١، (٢٠٠٨). عتبات ـ جيرار جينيت من النص إلى المناص. بيروت، الدار العربية للعلوم ناشرون / الجزائر، منشورات الاختلاف.
- بيدبا ، (١٩٧٤). كليلة ودمنة. (ترجمه إلى العربية: عبد الله بن المقفع) . دمشق، دار الوطن العربي للطباعة والنشر.
- جمعة، د. حسين، (٢٠٠٥) . من القواسم المشتركة بين الأدبين العربي والفارسي. مجلة التراث العربي، ع (٧)، دمشق، اتحاد الكتاب العرب.

ـ الحجمري، عبد الفتاح ط١، ١٩٩٦. عتبات النص ـ البنية والدلالة. الدار البيضاء، منشورات الرابطة.

ـ كاندو، جويل، (٢٠٠٩) . الذاكرة والهوية (ت: وجيه أسعد). دمشق، وزارة الثقافة، الهيئة العامة السورية للكتاب .

ـ كيليطو، عبد الفتاح ط٢،)(١٩٨٣). الأدب والغرابة ـ دراسة بنيوية في الأدب العربي. بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر.

ـ ابن المقفع، عبد الله، (١٩٨٦). آثار ابن المقفع، بيروت، دار مكتبة الحياة.

ـ منصر، نبيل، ط١، (٢٠٠٧). الخطاب الموازي للقصيدة العربية المعاصرة . الدار البيضاء، دار توبقال.

ـ النجار، محمد رجب، (٢٠٠٦). الأدب الملحمي في التراث الشعبي العربي. القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب .